قادمة فى جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدِّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ فلمَّا رأوْهَا أقشعَتْ وتجلَّت[1]

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه فى آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل فى الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « يأس بعد إطماع » وهو أنكى فى التعذيب وأشقّ على النفوس .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] أى : فما حدثتكم به ﴿ لَآيَةً .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى : عبرة ، وسُمِّيتْ كذلك لأنها تعبر

---

(١) انقشع السحاب وتقشَّع : ذهب عن وجه السماء . وانقشع الغيم وتقشَّع وقشعته الريح ، أى : كشفته فانقشع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] .

(٢) العارض : السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع .

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هى : أن ينصر الله - عز وجل - رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدَّق ، وإنْ كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلِم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا فى الرسل أن ننصرهم .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعنى : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾ [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلَّة التى آمنت[1] .

---

(١) قيل : آمن بشعيب من الفئتين (أهل مدين ، أصحاب الأيكة) تسعمائة نفر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٠١٨/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾

ربك : الرب هو المتولِّى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة .

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعظة فى موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾

﴿ وَإِنَّهُ .. (١٩٢) ﴾ [الشعراء] على أىِّ شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشىء . تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب فى أكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ إِنَّهُ .. (١٩٢) ﴾ [الشعراء] أى : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه : ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم[1] .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧) : « (وَإِنَّهُ) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ .. (٥) ﴾ [الشعراء] » .

وقال ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء]

أى : أنه كلام الله لم أقلْهُ من عندى ، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يسبق له أنْ وقف خطيباً فى قومه ، ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قَوْل .

إذن : فهو بمقاييس الدنيا دونكم فى هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأتُوا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة فى القول والخطابة فى عكاظ وذى المجاز وذى المجنة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فأنتم أقدر على الافتراء ؛ لأنكم أهل دُرْبة فى هذه المسألة .

و ﴿ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء] : كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ ؛ لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين للإنس وللجن وللملائكة وغيرها من العوالم .

لذلك لما نزلت : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : « أما لك من هذه الرحمة شىء يا أخى يا جبريل ؟» فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ [التكوير] أمِنْتُ العاقبة ، فتلك هى الرحمة التى نالتنى .

وليس القرآن وحده تنزيلَ رب العالمين ، إنما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صدْقه فى البلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هي عَيْن المنهج . فلماذا ؟

قالوا : لأن القرآن جاء منهجاً للناس كافّةً في الزمان وفي المكان فلا بد - إذن - أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة ، والمعجزة هي عَيْن المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ، فهو تنزيل رب العالمين .

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها في فترة محددة من الزمن ، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصِّها ؛ لذلك عيسى - عليه السلام - يقول : « سأجعل كلامي في فمه »[1] أي : أن كلام الله سيكون في فم الرسول بنصِّه ومعناه من عند الله ، وما دام بنصِّه من عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

كان من الممكن أن يكون الوحي من عند الله إلهاماً أو نَفْثاً في الرَّوْع ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : الأمر ليس نَفْثاً في رَوْع رسول الله بحكم ما ، إنما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحي يقول له : قال الله كذا وكذا .

---

(١) أصل هذه البشارة برسول الله ﷺ في التوراة (العهد القديم) المنزّل على موسى : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه » [سفر التثنية - الأصحاح ١٨ - عدد ١٨ ، ١٩] . قال رحمت الله الهندي في « إظهار الحق » ص ٥١٠ « هو إشارة إلى أن ذلك النبي سينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه سيكون أمياً حافظاً للكلام » .

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحي ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه الملك ؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسها ، ويتفصد جبينه منه عرقاً ، ثم يُسرِّي عنه ، وهذه كلها علامات حضور الملك ومباشرته لرسول الله ، هذا هو الوحي ، أمَّا مجرد الإلهام أو النَّفْث في الرَّوْع فلا يثبت به وَحْي .

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحي ، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ كدويّ النحل[1] أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر يثقل على رسول الله ، حتى إنه إنْ أسند فَخذه على أحد الصحابة أثناء الوحي يشعر الصحابي بثقلها كأنها جبل[2] ، وإذا نزل الوحي ورسول الله على دابته يثقل عليها حتى تنخَّ به[3] ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل]

ولم تهدأ مشقَّة الوحي على رسول الله إلا بعد أنْ فتَر عنه الوحي ، وانقطع فترة حتى تشوَّق له رسول الله ﷺ وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يُسمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل » . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٤) .

(٢) ذكر البخاري في صحيحه ـ كتاب الصلاة ، باب ما يذكر في الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحي رضي الله عنه موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي (فتح الباري ١/ ٤٧٨) . وقال ابن حجر : هو طرف من حديث موصول عند البخاري في تفسير سورة النساء في نزول قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝٩٥﴾ [النساء] (أخرجه البخاري في صحيحه ـ ٤٥٩٢) .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : « إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله إذ أنزلت عليه (سورة) المائدة كلها ، فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة » أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٥٥) .

ونزلت عليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى]

يعنى : سيعاودك الوحى فى سهولة ودون مشقَّة ، ولن تتعب فى تلقيه ، كما كنتَ تعانى من قبل .

وقوله تعالى ﴿ نَزَلَ .. (١٩٣) ﴾ [الشعراء] تفيد العلو ، وأن القرآن نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطىء ويصيب ويجهل المصلحة ، كما نرى فى القوانين الوضعية التى تُعدَّل كل يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتى يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم .

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثق فيه المطمئن به ، لا نعانده ، ولا نتكبر عليه ؛ لأنك تتكبر على مساوٍ لك ، أمّا ما جاءك من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفى الريف نسمعهم يقولون (اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم) لماذا ؟ لأنه قُطع بأمر الأعلى منك ، بأمر الله ، لا بأمر واحد مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى فى التشريع لحكم من الأحكام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

كلمة (تعالوا) تعنى : اتركوا حضيض تشريع الأرض ، وأقْبلوا على رِفْعة تشريع السماء ، فتعالوا أىْ : تعلَّوا وارتفعوا ، لا تهبطوا إلى مستوى الأرض ، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث ؛ لأن الذى يُشرِّع لكم بشر أمثالكم وإنْ كانوا حتى حَسَنى النية ، فهم لا يعلمون حقائق الأمور ، فإنْ أصابوا فى شىء أخطأوا فى أشياء ، وسوف تُضطرون

لتغـيير هذه التشـريعات وتعديلها . إذن : فـالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى ؛ لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم .

إذن : ﴿ نَزَلَ .. ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] تفيـد أنه من الأعلى من مـصدر الخيـر ، حتى الحديد وهو من نعَم الله ، لمـا تكلم عنه قال سبـحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ولم يَقُلْ مثـلاً : أنزلنا الألماظ أو الألماس ، أو غيـره من المعادن النفـيسـة ، لماذا ؟ لأن الحـديد أداة من أدوات نُصْـرة الدعوة وإعـلاء كلمة الله .

وسُمِّى جبـريل ـ عليه السلام ـ الروح ؛ لأن الروح بهـا الحياة ، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكأنهم أرواح مطلقة ، أما البشر فمادة فيها روح .

كما أن كلمة الروح استُعملَتْ عدة استعمالات منها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] والمراد الروح التى نحيا بها .

وسُمِّى القـرآن رُوحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] إذن : فالقرآن روح ، والملَك الذى نزل به روح ، فإنْ قلتَ : فما حاجتى إلى الروح وفىَّ روح ؟

نقول لك : هذه الروح التى تحيا بهـا مادتك ، والتى تفارقك حين تموت وتنتـهى المسـألة ، أمّا الروح التى تأتيك فى القـرآن فهى روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذى يعطيك الحياة الأبدية التى لا تنتهى .

لذلك ، فـالروح التى تحيـا بها المـادة للمـؤمن وللكافر على حَدٍّ

سواء ، أمّا الروح التى تأتيك من كتاب الله وفى منهجه ، فهى للمؤمن خاصة ، وهى باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم ، نحن أحياء بالروح الأولى روح المادة الفانية ، أمّا رسول الله فهو يدعونا للحياة الباقية ، وكأنه ـ عز وجل ـ يشير إلى أن هذه الحياة التى نحياها ليست هى الحياة الحقيقية ؛ لأنها ستنتهى ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة .

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ؛ لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا تأتى إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فالحيوان مبالغة فى الحياة ، أى : الحياة الحقيقية ، أما حياة المادة فأىّ حياة هذه التى يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ؟!

ثم يَصف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الروح بأنه ﴿ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أى : على الوحى ، القرآن ـ إذن ـ مَصُون عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذى نزل به ، مَصُون عند النبى الأمين الذى نزل عليه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أىّ مخالفة . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[1] (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قلبه ؟ الأذن هى : أداة السمع ، لكن قال تعالى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤) ﴾ [الشعراء] لأن الأذن وسيلة عبور للقلب ، لأنه محلُّ التلقِّى ، وهو (دينامو) الحركة فى جسم الإنسان ، فبالدم الذى يضخُّه فى أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف .

لذلك نرى المريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور الدواء دورة الطعام ، ويُمتصُّ ببطء ، فإنْ أردتَ سرعة وصول الدواء للجسم تعطيه حقنة فى العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة فى الوريد ، فتختلط بالدم مباشرة ، وتُحدث أثرها فى الجسم بسرعة ، فالدم هو وسيلة الحياة فى النفس البشرية .

إذن : فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الأذن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأذن ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

فالمعنى : نزَّله على قلبك مباشرة ، كأنه لم يمرَّ بالأذن ؛ لأن الله تعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه ، وأزال عنه العقبات البشرية التى تعوق هذه المباشرة ، فكأن قلبه ﷺ أصبح منتبهاً لتلقِّى

(١) الضنين : البخيل . فهو سبحانه لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء [القاموس القويم ١/٣٩٦] .

كلام الله ؛ لأنه مصنوع على عَيْن الله ، أما الذين سمعوا كلام الله بآذانهم فلم يتجاوبوا معه ، فكانت قلوبهم مغلقة قاسية فلم تفهم .

والقلب محل التكاليف ، ومُستقرّ العقائد ، وإليه تنتهى مُحصِّلة وسائل الإدراك كلها ، فالعيْن ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشمّ ، والأيدى تلمس .. ثم يُعرض هذا كله على العقل ليختار بين البدائل ، فإذا اختار العقل واطمأن إلى قضية ينقلها إلى القلب لتستقر به ؛ لذلك نسميها عقيدة يعنى : أمْر عقد القلب عليه ، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، لقد ترسَّخ فى القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفى آيات كثيرة نجد المعوّل والنظر إلى القلب ، يقول تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. (٣٧) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن أن التقوى محلُّها القلب : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج]

وفى الشهادة يقول تعالى : ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة] مع أن الشهادة باللسان ، لا بالقلب .

لذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه النعمان بن بشير : « ألا إن فى الجسد مُضْغة ، إذا صلُحتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ويُحدِّثنا صحابة النبى ﷺ أنه كان ينزل عليه الوحى بآيات كثيرة بما يوازى رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرة واحدة ، فإذا ما سُرِّى عنه ﷺ قال : اكتبوا ، ثم يقرؤها عليهم مع وَضْع كل آية فى مكانها من

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٧٠ ، ٢٧٤) من حديث النعمان بن بشير ، وأوله : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن » .

سورتها ، ثم يقرؤها ﷺ في الصلاة ، فتكون هي هي كما أملاها عليهم ؛ ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه .

وكان ﷺ لحرصه على حفظ القرآن يُردِّده خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه[1] : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

وقال في موضع آخر : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤ ﴾ . [طه]

وقال تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ ﴾ [القيامة]

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يُلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نَصّاً ، أمّا النبي ﷺ فكانت تُلْقَى عليه السورة ، فيعيدها كما هي ، ذلك من قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ ﴾ [الشعراء] المنذر : الذي يُحذِّر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فلا يقع في دواعي الشر ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع الشر ، لأنه في هذه الحالة لا يُجْدى ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السامع على الخير ، وتحفزه إليه .

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ .. ۝٦ ﴾ [يس]

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ حتى يزمل من الوحي يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يُغْشى عليه ، فقال له جبريل ، لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى . فأنزل الله عز وجل ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى] . أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢٦٤٩) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦/٧) وقال « فيه جويبر وهو ضعيف » ، وكذا ضعّفه السيوطي في أسباب النزول (ص ٢٩٦) .

فكما أنـذر الرسلُ السابقـون أقوامهم ، أنْذِر أنت قـومك ، وانضمَّ إلى موكب الرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] فإنْ كان القرآن قد نزل على قلبك ، فكيف يسـمعونه ؟ وكيف يكتبـونه ؟ ويحفظونه ؟ يأتى هنا دَوْر اللســان العربـى الذى يُخرج القـرآن إلى الناس . إذن : فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويُؤخِّر اللسان ؛ لأنه وسيلة الحفظ والصيانة والقراءة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] أى : واضح ظاهر ، محـيط بكل أقضيـة الحيـاة ، لكن يأتى مَنْ يقـول : إنْ كـان القرآن نزل بلسـان عربى ، فما بـال الكلمات غير العربية التى نطق بهـا ؟ فكلمة قسطاس رومية[1] ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية[2] .

ونقـول : معـنى اللسان العـربى مـا نطق به العـرب ، ودار على ألسنتـهم ؛ لأنه أصبح من لغتـهم وصار عـربياً ، وإنْ كـان من لغات أخرى ، والمـراد أنه لم يأْت بكلام جديد لم تعـرفه العرب ، فـقبل أنْ ينزل القرآن كانت هذه الكلمةَ شائعة فى اللسان العربى .

ونزل القرآن باللسان العربى خاصةً ؛ لأن العرب هم أمة استقبال

---

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : القسطـاس بلغة الروم : الميزان [الإتقان فى علوم القـرآن للسيوطى ١١٥/٢] .

(٢) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : سجيل بالفارسية . أولها حجارة وآخرها طين . [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١٢/٢] .

الدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربى ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

الضمير فى ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿ زُبُرِ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] جمع زبور يعنى : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التى عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهى : اليهودية والنصرانية فى التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى]

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير إلا الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

تقول : ولماذا - إذن - نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتتناسب كل العصور التى نزل

القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوى عن عبد الله بن سلام[١] وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد ﷺ في التوراة ، وفي الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا في هذه المسألة ، فوالله إني لأعرفه كمعرفتي لولدي ، ومعرفتي لمحمد أشد[٢] .

ويقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً في قومه : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

إذن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ [الشعراء] أي : محمد ﷺ أو هو القرآن الكريم ، فكلاهما صحيح ؛ لأن صفة رسول الله ﷺ موجودة في هذه الكتب ، أو القرآن في عموم مبادئه في العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجلس إلى معلم ، وتاريخه في ذلك معروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٣ هـ (الأعلام للزركلي ٤/٩٠) .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبي : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه » .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[1] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه ﷺ لا علْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْي المباشر فى القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ[2] بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

آية : أى دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بني إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج فى المدينة : لقد أطلَّ زمان نبيٍّ يأتى سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وارم[3] ، ومع ذلك لما بُعث النبى ﷺ أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

---

(١) ثوى بالمكان : حلَّه وأقام فيه واستقر به . والمعنى : ما كنت مقيماً عندهم . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) أخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية العوفى : كانوا خمسة : أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٣٢٣] .

(٣) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .